أريد أن أتوب ولكن !!

البشلي

تأليف

محمد صالح المنجد

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

رقم الإيداع : ٥٣٧٣ / ٢٠٠٠
طبع بدار نوبار للطباعة



مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم

القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ،ناصية شارع الجمهورية،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

الحمـد لله الرحيم التـواب الهادي إلى الـصواب، غافـر الذنب وقـابل التـوب شديد العـقـاب، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحـده لاشريك له، الملك الوهاب، وأشـهد أن محمدًا عـبده ورسوله ﷺ وعلى سائر الآل والأصحاب وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمـا بعـد: فقد قرأت هـذه الرسالة التي تتعلق بالتوبة فألفـيتها رسالة قيمة ومفيدة، بيّن فـيها الكاتب شروط التوبة وأدلتها وأحوال التائبين والكثير مـن الذنوب التي تجب التوبة منها. لذلك ننصح كل خطّاء -وكلنا كـذلك- أن يطبق هذه التـعالـيم، وأن يبادر بالتـوبة النصوح، ويستحضر أن ربه تعالى يـقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويرجـو رحمة ربه، ويثق بأن الله تعالى سيوفـقه للعمل ويعينه على مواصلة السيـر إلى ربه، وعلى ترك المعاصي والبعد عن أهلها.

وفق الله الجـمـيع لكل خـيـر، وأثاب أخانـا الكاتب ونفع به المسلمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

وكتبه في ١١/ ٧/ ١٤١٠هـ

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

المقدمة

«إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله أما بعد»(١)

فإن الله أمر المؤمنين جميعًا بالتوبة فقال: ﴿وتوبُوا إلى الله جميعًا أيهَ المؤمنون لعلكُم تفلحون﴾ [النور : ٣١].

وقسّم العباد إلى تائب وظالم، وليس ثمَّ قسم ثالث البتة، فقال عزّ وجلّ: ﴿ومن لم يتبْ فأولئكَ هم الظالمون﴾ [الحجرات: ١١].

وهذا أوانٌ بَعُد فيه كثير من الناس عن دين الله فعمت المعاصي وانتشر الفساد. حتى ما بقي أحد لم يتلوث بشيء من الخبائث إلا من عصم الله.

ولكن يأبى الله إلا ن يتمَّ نوره فانبعث الكثيرون من غفلتهم ورقادهم، وأحسوا بالتقصير في حقّ الله، وندموا على التفريط والعصيان، فتوجهت ركائبهم مُيمِّمة شطر منار التوبة. وآخرون سئموا حياة الشقاء وضنك العيش، وها هم يتلمسون طريقهم للخروج من الظلمات إلى النور.

---

(١) هذه الكلمات كانت سبب إسلام الصحابي الجليل ضماد الأزدي (رضي الله عنه) لما سمعها من رسول الله ﷺ . مختصر صحيح مسلم رقم ٤٠٩ .

لكن تعترض طريق ثلة من هذا الموكب عوائقُ يظنونها تحول بينهم وبين التوبة، منها ما هو في النفس، ومنها ما هو في الواقع المحيط.

ولأجل ذلك كَتبتُ هذه الرسالة آملاً أن يكون فيها توضيحٌ للبسٍ وكشفٌ لشبهة، أو بيانٌ لحكم ودحرٌ للشيطان(١).

وتحتوي هذه الرسالة على مقدمة عن خطورة الاستهانة بالذنوب فشرحًا لشروط التوبة، ثم علاجات نفسية، وفتاوى للتائبين مدعمة بالأدلة من القرآن الكريم والسنة، وكلام أهل العلم وخاتمة.

والله أسأل أن ينفعني وإخواني المسلمين بهذه الكلمات، وحسبي منهم دعوة صالحة أو نصيحة صادقة، والله يتوب علينا أجمعين.

محمد صالح المنجد

مدينة الخبر ص.ب ٢٩٩٩

---

(١) وأصل هذه الرسالة محاضرة كنت ألقيتها في ٢٧ من ربيع الأول من عام ١٤٠٩ هـ.

مقدمة في خطر الاستهانة بالذنوب

اعلم رحمني الله وإياك أن الله عز وجل أمر العباد بإخلاص التوبة وجوبًا فقال سبحانه: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا تُوبُوا إلى الله توبةً نصوحًا﴾ [التحريم: ٨].

ومنحنا الله مهلة للتوبة قبل أن يقوم الكرام الكاتبون بالتدوين فقال ﷺ: (وإن صاحب الشمال ليرفعُ القلمَ ستَّ ساعات[١] عن العبد المسلم المخطئ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتبتْ واحدة)[٢]. ومهلة أخرى بعد الكتابة وقبل حضور الأجل.

ومصيبة كثير من الناس اليوم أنهم لا يرجون لله وقارًا، فيعصونه بأنواع الذنوب ليلاً ونهارًا، ومنهم طائفة ابتُلُوا باستصغار الذنوب، فترى أحدهم يحتقر في نفسه بعض الصغائر، فيقول مثلاً: وماذا تضر نظرة أو مصافحة أجنبية[٣].

---

(١) يحتمل أن يكون الساعة الفلكية المعروفة، أو هي المدة اليسيرة من الليل أو النهار: لسان العرب: سوع - فيض القدير للمناوي.

(٢) رواه الطبراني فى الكبير والبيهقي في شعب الإيمان، وحسنه الألباني (سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٢٠٩).

(٣) الأجانب ما سوى المحارم.

ويتسلّون بالنظر إلى المحرمـات في المجلات والمسلسلات، حتى أن بعضهم يسأل باستـخفاف إذا علم بحرمة مسألة كم سيـئة فيها؟ أهي كبـيرة أم صغيـرة؟ فإذا علمت هذا الواقع الحاصل فـقارن بينه وبين الأثرين التاليين من صحيح الإمام البخاري (رحمه الله):

[١] عن أنس (رضي الله عنه) قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات». (والموبقات هي المهلكات).

[٢] عن ابن مـسـعـود (رضي الله عنه) قـال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قـاعد تحت جبل يخـاف أن يقع عليه، وإن الفـاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا - أي بيده - فذبه عنه».

وهل يقـدِّر هـؤلاء - الآن - خطـورة الأمـر إذا قـرأوا حـديث رسول الله ﷺ : «إياكم ومـحقَّرات الذنوب، فـإنما مثل محـقَّرات الذنوب كمثـل قوم نزلوا بطن وادٍ، فجاءَ ذا بعـودٍ، وجاء ذا بعود، حتَّى حـملوا ما أنضَجُـوا به خبـزهم، وإن محقـرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبُـها تُهلكُه». وفي رواية: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»[١].

(١) رواه أحمد (صحيح الجامع ٢٦٨٦-٢٦٨٧).

وقد ذكر أهل العلم أن الصغيرة قد يقترن بها من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف من الله مع الاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر بل يجعلها في رتبتها. ولأجل ذلك لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

ونقول لمن هذا حاله: لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن إلى من عصيت.

وهذه كلمات سينتفع بها إن شاء الله الصادقون، الذين أحسوا بالذنب والتقصير وليس السادرون في غيّهم ولا المصرُّون على باطلهم.

إنها لمن يؤمن بقوله تعالى: ﴿نبئ عبادي أنّي أنا الغفورُ الرحيمُ﴾ [الحجر: ٤٩] . كما يؤمن بقوله: ﴿وأنّ عذابي هو العذاب الأليم﴾ [الحجر: ٥٠].

✿ ✿ ✿

شروط التوبة ومكملاتها

كلمة التوبة، كلمة عظيمة، لها مـدلولات عميقة، لا كما يظنها كثـيرون، ألفـاظ باللسان ثم الاسـتمرار على الذنب، وتـأمل قوله تعالى : ﴿**وأن استغفروا ربكم ثُم تُوبوا إليهِ**﴾ [هود: ٣]. تجد أن التوبة هي أمر زائد على الاستغفار.

ولأن الأمر العظيم لابد له من شروط، فقد ذكر العلماء شروطًا للتوبة مأخوذة من الآيات والأحاديث.

وهذا ذكر بعضها:

الأول : الإقلاع عن الذنب فورًا.

الثاني : الندم على ما فات.

الثالث : العزم على عدم العودة.

الرابع : إرجاع حقوق من ظلمهم، أو طلبُ البراءة منهم.

وذكر بعض أهل العلم تفصيلات أخرى لشروط التوبة النصوح، نسوقها مع بعض الأمثلة:

الأول : أن يكون ترك الذنب لله لا لشيء آخـر: كعـدم القدرة عليه، أو على معاودته، أو خوف كلام الناس مثلاً.

فلا يسمى تائبًا من ترك الذنوب لأنها تؤثر على جاهه وسمعته بين الناس، أو ربما طرد من وظيفته.

ولا يسمى تائبًا من ترك الذنوب لحفظ صحته وقوته، كمن ترك الزنا أو الفاحشة خشية الأمراض الفتاكة المعدية، أو أنها تضعف جسمه وذاكرته.

ولا يسمى تائبًا من ترك السرقة؛ لأنه لم يجد منفذًا للبيت، أو لم يستطع فتح الخزينة، أو خشي الحارس والشرطي.

ولا يسمى تائبًا من ترك أخذ الرشوة لأنه خشي أن يكون معطيها من هيئة مكافحة الرشوة مثلاً.

ولا يسمى تائبًا من ترك شرب الخمر وتعاطي المخدرات لإفلاسه.

وكذلك لا يسمى تائبًا من عجز عن فعل معصية لأمر خارج عن إرادته، كالكاذب إذا أصيب بشلل أفقده النطق، أو الزاني إذا فقد القدرة على الوقاع، أو السارق إذا أصيب بحادث أفقده أطرافه. بل لابد لمثل هذا من الندم والإقلاع عن تمنى المعصية أو التأسف على فواتها ولمثل هذا يقول ﷺ: (الندم توبة)[١].

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه (صحيح الجامع ٦٨٠٢)

والله نزل العاجز المتمني بالقول منزلة الفاعل، ألا تراه ﷺ قال: (إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالاً، ولم يرزقه علمًا يخبط في ماله بغير علم ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل. وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيّته ، فوزرهما سواء)[١].

الثاني: أن يستشعر قبح الذنب وضرره.

وهذا يعني أن التوبة الصحيحة لا يمكن معها الشعور باللذة والسرور حين يتذكر الذنوب الماضية، أو أن يتمنى العودة لذلك في المستقبل.

وقد ساق ابن القيم (رحمه الله) في كتابيه (الداء والدواء) (والفوائد) أضرارًا كثيرة للذنوب منها :

حرمان العلم - والوحشة في القلب - وتعسير الأمور - ووهن

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه . (صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٩).

البدن - وحرمان الطاعة - ومحقُ البركة - وقلة التوفيق - وضيق الصدر - وتولد السيئات - واعتياد الذنوب - وهوان المذنب على الله - وهوانه على الناس - ولعنة البهائم له - ولباس الذُّل - والطبع على القلب - والدخول تحت اللعنة - ومنع إجابة الدعاء - والفساد في البر والبحر - وانعدام الغيرة - وذهاب الحياء - وزوال النعم - ونزول النقم - والرعب في قلب العاصي - والوقوع في أسر الشيطان - وسوء الخاتمة - وعذاب الآخرة.

وهذه المعرفة من العبد لأضرار الذنوب تجعله يبتعد عن الذنوب بالكلية ، فإن بعض الناس قد يعدل عن معصية إلى معصية أخرى لأسباب منها :

١- أن يعتقد أن وزرها أخف.

٢- لأن النفس تميل إليها أكثر، والشهوة فيها أقوى.

٣- لأن ظروف هذه المعصية متيسرة أكثر من غيرها، بخلاف المعصية التي تحتاج إلى إعداد وتجهيز وأسبابها ليست حاضرة متوافرة.

٤- لأن قرناءه وخلطاءه مقيمون على هذه المعصية ويصعب عليه أن يفارقهم.

٥- لأن الشخص قد تجعل له المعصية المعينة جاهًا ومكانة بين أصحابه فيعز عليه أن يفقد هذه المكانة فيستمر في المعصية، كما يقع لبعض رؤساء عصابات الشر والفساد، وكذلك ما وقع لأبي نواس الشاعر الماجن لما نصحه أبو العتاهية الشاعر الواعظ ولامه على تهتكه في المعاصي، فأنشد أبو النواس :

أتراني يا عتاهي   تاركًا تلك الملاهي
أتراني مفسدًا بالنّسـ   ـك عند القوم جاهي

الثالث: أن يبادر العبد إلى التوبة ولذلك فإن تأخير التوبة هو في حد ذاته يحتاج إلى توبة.

الرابع : أن يخشى على توبته من النقض ولا يجزم بأنها قد قبلت، فيركن إلى نفسه ويأمن مكر الله.

الخامس : استدراك ما فات من حق الله إن كان ممكنًا، كإخراج الزكاة التي منعها في الماضي ولما فيها من حق للفقير كذلك.

السادس : أن يفارق موضع المعصية إذا كان وجوده فيه قد يوقعه في المعصية مرة أخرى.

السابع : أن يفارق من أعانه على المعصية (وهذا والذي قبله من فوائد حديث قاتل المائة وسيأتي سياقه).

والله يقول : ﴿**الأخلاءُ يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين**﴾ [الزخرف : ٦٧]. وقرناء السوء سيلعن بعضهم بعضًا يوم القيامة، ولذلك عليك أيها التائب بمفارقتهم ونبذهم ومقاطعتهم والتحذير منهم إن عجزت عن دعوتهم ولا يستجرينك الشيطان فيزين لك العودة إليهم من باب دعوتهم وأنت تعلم أنك ضعيف لا تقاوم.

وهناك حالات كثيرة رجع فيها أشخاص إلى المعصية بإعادة العلاقات مع قرناء الماضي.

الثامن : إتلاف المحرمات الموجودة عنده مثل المسكرات وآلات اللهو كالعود والمزمار، أو الصور والأفلام المحرمة والقصص الماجنة والتماثيل، وهكذا فينبغي تكسيرها وإتلافها أو إحراقها. ومسألة خلع التائب على عتبة الاستقامة جميع ملابس الجاهلية لابد من حصولها، وكم من قصة كان فيها إبقاء هذه المحرمات عند التائبين سببًا في نكوصهم ورجوعهم عن التوبة وضلالهم بعد الهدى، نسأل الله الثبات.

التاسع : أن يختار من الرفقاء الصالحين من يعينه على نفسه ويكون بديلاً عن رفقاء السوء وأن يحرص على حِلَقِ الذكر ومجالس العلم ويملأ وقته بما يفيد حتى لايجد الشيطان لديه فراغًا

ليذكره بالماضي.

العاشر: أن يعـهد إلى البدن الذي رباه بالسُّحت فيصـرف طاقته في طاعة الله ويتحرى الحلال حتى ينبت له لحم طيب.

الحادي عشر: أن تكون التوبة قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

والغـرغرة الصـوت الذي يخرج من الحلق عند سـحب الروح، والمقصود أن تكون التوبة قبل القيامة الصغرى والكبرى لقوله ﷺ: «من تاب إلى الله قبل أن يغرغر قبل الله منه»[1]. وقوله: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[2].

❁ ❁ ❁

(١) رواه أحمد والترمذي (صحيح الجامع ٦١٣٢)

(٢) رواه مسلم.

توبة عظيمة

ونذكر هنا نموذجًا لتوبة الرعيل الأول من هذه الأمة، صحابة رسول الله ﷺ .

عن بريدة (رضي الله عنه) : أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيتُ، وإني أريد أن تطهرني فردّه. فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله إني قد زنيتُ فردّه الثانية. فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: (أتعلمون بعقله بأسًا؟ تنكرون منه شيئًا؟) قالوا: ما نعلمه إلا وفيّ العقل، من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضًا، فسأل عنه فأخبروه أنه لابأس به ولا بعقله. فلما كان الرابعة حفر له حفرة، ثم أمر به فرُجم». قال: فجاءت الغامدية، فقالت: «يا رسول الله إنى قد زنيت فطهِّرني، وإنه ردَّها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزًا، فوالله إنى لحبلى، قال: (أما لا، فاذهبي حتى تلدي). قال: فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته. قال: (اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه). فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يارسول الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع

الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمَى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبّها. فسمع نبيُّ الله سبّه إياها، فقال: (مهلاً ياخالد! فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس[1] لغفر له)[2] . ثم أمر بها فَصَلَّى عليها، ودفنت».

وفي رواية فقال عمر: يا رسول الله رجمتها ثم تصلي عليها! فقال: (لقد تابت توبةً لو قُسِّمت بين سبعين من أهل المدينة وسعتهم، وهل وجدت شيئًا أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل)[3].

❁ ❁ ❁

(١) الذى يأخذ الضرائب.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه عبد الرزاق فى مصنفه ٧/ ٣٢٥.

التوبة تمحو ما قبلها

وقد يقول قائل: أريدُ أن أتوبَ ولكن مـاذا يضمن لي مغفرة الله إذا تبتُ، وأنا راغب في سلـوك طريق الاستـقـامـة ولكن يداخلني شعور بالتردد ولو أني أعلم أن الله يغفر لي لتبتُ؟!.

فأقول لـه: ما داخلك من المشاعر داخل نفـوس أناسٍ قبلك من صحابة رسول الله ﷺ.

ولو تأملت في هاتين الروايتين بيقين لزال مـا في نفسك إن شاء الله.

الأولى: روى الإمام مسلم (رحـمه الله) قصة إسـلام عمرو بن العاص (رضي الله عنه) وفيها:

«فلما جعل الله الإسـلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبـسط يمينه فقبضت يدي قال: مـالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: (تشترط بماذا؟) قلت: أنْ يغفر لي. قال: (أما علمت يا عمرو أن الإسـلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟).

الثانية: وروى الإمام مسلم عـن ابن عباس (رضي الله عنهما): أنّ ناسًـا من أهل الشرك قـتلوا فأكـثروا، وزنوا فـأكثـروا، ثم أتوا

محمدًا ﷺ فقالوا: «إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل قول الله تعالى: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفسَ التي حرم الله إلا بالحقِّ ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] ونزل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفُوا على أنفسهم لا تقنطُوا من رحمة الله﴾[الزمر : ٥٣] .

هل يغفر الله لي ؟

وقد تقول أريد أن أتوب ولكن ذنوبي كثيرة جدًا ولم أترك نوعًا من الفواحش إلا واقترفته، ولا ذنبًا تتخيله أو لا تتخيله إلا وارتكبته لدرجة أني لا أدري هل يمكن أن يغفر الله لي ما فعلته في تلك السنوات الطويلة؟!

وأقول لك أيها الأخ الكريم: هذه ليست مشكلة خاصة بل هى مشكلة كثير ممن يريدون التوبة، وأذكر مثالاً عن شاب وجّه سؤالاً مرة بأنه بدأ في عمل المعاصي من سن مبكرة وبلغ السابعة عشرة من عمره فقط وله سجل طويل من الفواحش كبيرها وصغيرها بأنواعها المختلفة مارسها مع أشخاص مختلفين صغارًا وكبارًا حتى اعتدى على بنت صغيرة، وسرق عدة سرقات ثم يقول: تبتُ إلى

الله عــز وجل، أقــوم وأتهــجــد بعض الليــالى وأصــوم الإثنين والخميس، وأقرأ القرآن الكريم بعد صلاة الفجر فهل لى من توبة؟

والمبدأ عندنا أهل الإسلام أن نرجع إلى الكتاب والسنة في طلب الأحكام والحلول والعلاجـات. فلما عدنا إلى الكتاب وجـدنا قول الله عز وجل: ﴿قل ياعـبادي الذين أسرفوا على أنفـسهم لا تقنطُوا من رحمة الله إن الله يغـفرُ الذنوب جميعًا إنه هو الغـفورُ الرحيمُ * وأنيبوا إلى ربكُم وأسلمُوا له﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

فهذا هو الجواب الدقيق للمشكلة المذكورة وهو واضح لا يحتاج إلى بيان.

أما الإحساس بأن الذنوب أكثر من أن يغفرها الله فهو ناشئ عن عدم يقين العبد بسعة رحمة ربه أولاً.

نقص في الإيمان بقدرة الله على مغفرة جميع الذنوب ثانيًا.

ضعف عمل مهم من أعمال القلوب وهو الرجاء ثالثًا.

عدم تقدير مفعول التوبة في محو الذنوب رابعًا.

ونجيب عن كل منها.

فأما الأول، فيكفي في تبيانه قول الله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت

كل شيء﴾ [الأعراف: ٥٦]

وأما الثاني ،فيكفي فيه الحديث القدسي الصحيح: (قال تعالى: من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي، ما لم يشرك بي شيئًا)[١]. وذلك إذا لقى العبد ربه في الآخرة.

وأما الثالث ، فيعالجه هذا الحديث القدسي العظيم: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لكَ على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغتْ ذنوبك عنانَ السماءِ ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أبالي، يا ابن آدمَ لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشركْ بي شيئًا لأتيتكَ بقرابها مغفرةً)[٢].

وأما الرابع، فيكفي فيه حديث رسول الله ﷺ: (التائبُ من الذنب كمن لا ذنب له)[٣].

وإلى كل من يستصعب أن يغفر الله له فواحشه المتكاثرة نسوق هذا الحديث :

(١) رواه الطبراني في الكبير والحاكم (صحيح الجامع ٤٣٣٠).
(٢) رواه الترمذي (صحيح الجامع ٤٣٣٨).
(٣) رواه ابن ماجه (صحيح الجامع ٣٠٠٨).

توبة قاتل المائة

عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب. فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجعْ إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم - أي حكمًا - فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيَّتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة)[1]. وفي رواية في الصحيح: (فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها)

---

(١) متفق عليه.

وفي رواية في الصحيح (فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرّبي وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له).

نعم ومن يخول بينه وبين التوبة؟ فهل ترى الآن يا من يريد التوبة أن ذنوبك أعظم من هذا الرجل الذى تاب الله عليه، فلِمَ اليأس؟

بل إن الأمر أيها الأخُ المسلمُ أعظم من ذلك، تأمل قول الله تعالى: ﴿والذين لا يدعونَ مع الله إلهًا آخرَ ولا يقتلونَ النفسَ التي حرمَ الله إلا بالحقِّ ولا يزنون ومن يفعلْ ذلك يلق أثامًا * يضاعفْ له العذابُ يوم القيامة ويخلُدْ فيه مهانًا إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدلُ الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا﴾ [الفرقان : ٦٨، ٧٠]

ووقفة عند قوله : ﴿فأولئك يبدلُ الله سيئاتهم حسنات﴾ [الفرقان: ٧٠]. تُبين لك فضل الله العظيم قال العلماء:

التبديل هنا نوعان :

الأول: تبديل الصفات السيئة بصفات حسنة كإبدالهم بالشرك إيمانًا وبالزنا عفةً وإحصانًا وبالكذب صدقًا وبالخيانة أمانةً وهكذا.

والثاني: (تبديل السيئات التي عملوها بحسنات يوم القيامة)

وتأمل قوله : ﴿يبدلُ الله سيئاتهم حسنات﴾. ولم يقل مكان كل سيئة حسنة فقد يكون أقلّ أو مساويًا أو أكثر في العدد أو الكيفية، وذلك بحسب صدق التائب وكمال توبته، فهل ترى فضلاً أعظم من هذا الفضل؟ وانظر إلى شرح هذا الكرم الإلهي في الحديث الجميل التالي:

عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي طويل شطب الممدود أنه أتى النبي ﷺ: (وفي طرق أخرى : «جاء شيخ هرم قد سقط حاجباه على عينيه وهو يدَّعم على عصًا حتى قام بين يدي النبي ﷺ) فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها فلم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجّة (أي لا صغيرة ولا كبيرة) إلا أتاها، (وفي رواية، إلا اقتطعها بيمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم «أهلكتهم» . فهل لذلك من توبة؟ قال: (فهل أسلمت) قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال: (تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك خيرات كلهن). قال: وغدراتي وفجراتي. قال: نعم! قال:الله أكبر. فما زال يكبر حتى توارى[1].

(١) قال الهيثمى :رواه الطبراني والبزار بنحوه ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون أبي نشيطة وهو ثقة. المجمع ٣٦/١ وقال المنذري فى الترغيب: إسناده جيد قوي١١٣/٤ وقال ابن حجر في الإصابة: هو على شرط الصحيح ١٤٩/٤ ترجمة شطب.

وهنا قد يسأل تائب، فيقول: إني لما كنت ضالاً لا أصلي خارجًا عن ملة الإسلام قمت ببعض الأعمال الصالحة فهل تحسب لي بعد التوبة أو تكون ذهبت أدراج الرياح.

وإليك الجواب: عن عروة بن الزبير أن حكيم بن حزام أخبره أنه قال لرسول الله ﷺ: أي رسول الله أرأيت أمورًا كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عِتاقة أو صِلة رحمٍ أفيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ : (أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير)[1].

فهذه الذنوب تغفر، وهذه السيئات تبدلُ حسناتٍ، وهذه الحسناتُ أيام الجاهلية تثبت لصاحبهَا بعد التوبة، فماذا بقي!

كيف أفعل إذا أذنبت

وقد تقول إذا وقعت في ذنب فكيف أتوب منه مباشرة وهل هناك فعل أقوم به بعد الذنب فورًا؟

فالجواب: ما ينبغي أن يحصل بعد الإقلاع عملان:

الأول: عمل بالقلب بالندم والعزم على عدم العودة، وهذه تكون نتيجة الخوف من الله.

(١) رواه البخاري.

والثاني : عمل الجوارح بفعل الحسنات المختلفة ومنها صلاة التوبة، وهذا نصها:

عن أبي بكر (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من رجل يُذنب ذنبًا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي [ركعتين] ثم يستغفرُ الله إلا غفر الله له)[1]. ثم قرأ هذه الآية ﴿والذين إذا فعلُوا فاحشةً أو ظلمُوا أنفسهمْ ذكروا الله فاستغفرُوا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرُّوا على ما فعلُوا وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقد ورد في روايات أخرى صحيحة صفات أخرى لركعتين تكفران الذنوب هذا ملخصها:

(١) ما من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء (لأن الخطايا تخرج من الأعضاء المغسولة مع الماء أو مع آخر قطر الماء).

ومن إحسان الوضوء قول بسم الله قبله والأذكار بعده وهي: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله - اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين -

(١) رواه أصحاب السنن (صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٨٤).

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. (وهذه أذكار ما بعد الوضوء لكل منها أجر عظيم).

(٢) يقوم فيصلي ركعتين.

(٣) لا يسهُو فيهما.

(٤) لا يحدث فيهما نفسه.

(٥) يحسنُ فيهن الذكر والخشوع.

(٦) ثم استغفر الله.

والنتيجة :

(١) غفر له ما تقدم من ذنبه.

(٢) إلا وجبت له الجنة[1].

ثم الإكثار من الحسنات والطاعات. ألا ترى أن عمر (رضى الله عنه) لما أحسّ بخطئه في المناقشة مع رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، قال بعدها: فعملت لذلك أعمالاً - أى صالحاتٍ - لتكفير الذنب.

وتأمل في المثل الوارد في هذا الحديث الصحيح قال ﷺ: (إن

(١) صحيح الترغيب ١/ ٩٤ - ٩٥.

مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع (لباس من حديد يرتديه المقاتل) ضيقة، قد خنقته ، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل أخرى فانفكت الأخرى حتى يخرج إلى الأرض)[١].

فالحسنات تحرر المذنب من سجن المعصية، وتخرجه إلى عالم الطاعة الفسيح، ويلخص لك يا أخي ما تقدَّم هذه القصة المعبّرة:

عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها ،قبّلتها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت. فلم يقل الرسول ﷺ شيئًا فذهب الرجل. فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر نفسه. فأتبعه رسول الله ﷺ بصره، ثم قال : (ردوه علي). فردوه عليه فقرأ عليه: ﴿أقمِ الصلاة طرَفَي النهار وزُلَفًا من الليل إنّ الحسنات يذهبنَ السيئات ذلك ذكرى للذاكرينَ﴾.

فقال معاذ - وفي رواية: عمر - يا رسول الله ألَهُ وحدَهُ ، أم للناس كافة؟ فقال: (بل للناس كافة)[٢].

(١) رواه الطبراني في الكبير (صحيح الجامع ٢١٩٢).
(٢) رواه مسلم.

أهل السوء يطاردونني

وقد تقول: أريد أن أتوب ولكن أهل السوء من أصحابي يطاردونني في كل مكان وما إن علموا بشيء من التغير عندي حتى شنوا عليّ حملة شعواء وأنا أشعر بالضعف فما أفعل؟!

ونقول لك: اصبر فهذه سنة الله في ابتلاء المخلصين من عباده ليعلم الصادقين من الكاذبين وليَميزَ الله الخبيث من الطيِّب.

وما دمت وضعت قدميك على بداية الطريق فاثبت ، وهؤلاء شياطين الجن والإنس يوحِي بعضُهم إلى بعض لكي يردوك على عقبيك، فلا تطعهم، إنهم سيقولون لك في البداية: هذا هوسٌ لا يلبث أن يزول عنك، وهذه أزمة عارضة، والعجب أن بعضهم قال لصاحب له في بداية توبته: عسى ما شرّ!!

والعجب أن إحداهن لما أغلق صاحبها الهاتف في وجهها لأنه تاب ولا يريد مزيدًا من الآثام اتصلت به بعد فترة، وقالت: عسى أن يكون زال عنك الوسواس؟

والله يقول: ﴿ قل أعوذُ بربِّ الناس ۞ ملكِ الناسِ۞ إله الناس۞ من شرِّ الوسواس الخنّاس۞ الذى يوسوس في صدور الناس۞ من الجنَّة والناس﴾ [الناس : ١-٦].

فهل ربك أولى بالطاعة أم ندماء السوء؟!

وعليك أن تعلم أنهم سيطاردونك في كل مكان وسيسعون لردك إلى طريق الغواية بكل وسيلة، ولقد حدثني بعضهم بعد توبته أنه كانت قرينة سوء تأمر سائق سيارتها أن يمشي وراءه وهو في طريقه إلى المسجد وتخاطبه من النافذة.

هنالك ﴿ يثبتُ الله الذين آمنُوا بالقول الثَّابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [إبراهيم: ٢٧].

سيسعون إلى تذكيرك بالماضي وتزيين المعاصي السابقة لك بكل طريقة، ذكريات.. توسلات.. صور.. ورسائل. فلا تطعهم واحذرهم أن يفتنوك وتذكر هنا قصة كعب بن مالك الصحابي الجليل، لما أمر رسول الله ﷺ الصحابة جميعًا بمقاطعته لتخلفه عن غزوة تبوك حتى يأذن الله: أرسل إليه ملك غسّان الكافر رسالة يقول له فيها: «أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك». يريد الكافر استمالة المسلم حتى يخرج من المدينة ويضيع هناك في ديار الكفر.

ما هو موقف الصحابي الجليل قال كعب: «فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء فتيممت بها التنور (الفرن) فسجرتها (أي

أحرقتها))».

وهكذا اعمد أنت أيها المسلم من ذكر وأنثى إلى كل ما يرسل إليك من أهل السوء فأحرقه حتى يصير رمادًا وتذكر وأنت تحرقه نار الآخرة. ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون﴾.

إنهم يهددونني

أريد أن أتوب ولكن أصدقائي القدامي يهددونني بإعلان فضائحي بين الناس، ونشر أسراري على الملأ، إن عندهم صورًا ووثائق، وأنا أخشى على سمعتي. إني خائف!!

ونقول: جاهد أولياء الشيطان إن كيدَ الشيطانِ كان ضعيفًا. فهذه ضغوط أعوان إبليس تجتمع عليك كلها، ثم لا تلبث أن تتفرق وتتهاوى أمام صبر المؤمن وثباته.

واعلم أنك إن سايرتهم ورضخت لهم فسيأخذون عليك مزيدًا من الإثباتات، فأنت الخاسر أولاً وأخيرًا. ولكن لا تطعهم واستعن بالله عليهم؛ وقل حسبي الله ونعم الوكيل. وكان رسول الله ﷺ إذا خاف قومًا قال: (اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من

شرورهم)[1].

صحيح أن الموقف صعب وأن تلك المسكينة التائبة التي اتصل بها قرين السوء يقول مهددًا: لقد سجلت مكالماتك ولديَّ صورتك ولو رفضت الخروج معي لأفضحنك عند أهلك !! صحيح أنها في موقف لا تحسد عليه!

وانظر إلى حرب أولياء الشيطان لمن تاب من المغنيين والمغنيات والممثلين والممثلات فإنهم يطرحون أسوأ إنتاجهم السابق في الأسواق للضغط والحرب النفسية، ولكن الله مع المتقين، ومع التائبين، وهو ولي المؤمنين، لا يخذُلُهم ولا يتخلى عنهم، وما لجأ عبد إليه فخاب أبدًا. واعلم أن مع العسر يسرًا، وأن بعد الضيق فرجًا.

وإليك أيها الأخ التائب هذه القصة المؤثرة شاهدًا واضحًا على ما نقول: إنها قصة الصحابي الجليل مرثد بن أبي مرثد الغنويّ الفدائي الذي كان يُهرِّب المستضعفين من المسلمين من مكة إلى المدينة سرًا.
«كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسرى

(١) رواه أحمد وأبو داود (صحيح الجامع ٤٥٨٢).

من مكة، حتى يأتي بهم المدينة. قال: وكانت امرأة بَغِيٌّ بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له، وإنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحتمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائطٍ من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط، فلما انتهت إليّ عَرفت، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. قالت: مرحبًا وأهلاً، هلم فبت عندنا الليلة، قلت: يا عناق حرم الله الزِّنا. قالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراكم!! قال: فتبعني ثمانية، وسلكت الخندمة (جبل معروف عند أحد مداخل مكة) فانتهيت إلى غار أو كهف، فدخلت فجاءوا حتى قاموا على رأسي وعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا، ورجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الإذخر ففككت عنه أكبُله (قيوده) فجعلت أحمله ويُعيِيني (يرهقني) حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكحُ عناقًا؟ مرتين، فأمسك رسول الله ﷺ ولم يردَّ عليَّ شيئًا، حتى نزلت ﴿الزانى لا ينكح إلا زانيةً أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾ [النور : ٣] فقال رسول الله ﷺ : (يا مرثد، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك

فلا تنكحها).[١]

هل رأيت كـيف يدافع الله عن الذين آمنوا وكيف يكون مع المحسنين؟.

وعلى أسوأ الحالات لو حصل ما تخشاه أو انكشفت بعض الأشياء واحتاج الأمر إلى بيان فوضّح موقفك للآخرين وصارحهم، وقل: نعم كنت مذنبًا فتبت إلى الله فماذا تريدون؟ ولنتذكر جميعًا أن الفضيحة الحقيقية هي التي تكون بين يدي الله يوم القيامة، يوم الخزي الأكبر، ليست أمام مائة أو مائتين ولا ألف أو ألفين، ولكنها على رؤوس الأشهاد، أمام الخلق كلهم من الملائكة والجن والأنس، من آدم وحتى آخر رجل.

. فهلمّ إلى دعاء إبراهيم:

﴿ولا تُخزني يومَ يبعثونَ ۞ يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنونَ ۞ إلا منْ أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

وتحصن في اللحظات الحرجة بالأدعية النبوية: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا. اللهم اجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من بغى علينا. اللهم لا تشمتْ بنا الأعداء ولا الحاسدين.

(١) صحيح سنن الترمذي ٣ / ٨٠.

ذنوبي تنغص معيشتي

وقد تقول: إني ارتكبت من الذنوب الكثير وتبتُ إلى الله ولكن ذنوبي تطاردني، وتَذكُّري لما عملته ينغّصُ عليّ حياتي ويقضُّ مضجعي، ويؤرق ليلي، ويقلق راحتي، فما السبيل إلى إراحتي.

فأقول لك أيها الأخ المسلم: إن هذه المشاعر هي دلائل التوبة الصادقة، وهذا هو الندم بعينه، والندم توبة فالتفت إلى ما سبق بعين الرجاء، رجاء أن يغفر الله لك، ولا تيأس من رَوْح الله، ولا تقنطَ من رحمة الله. والله يقول: ﴿ومن يقنطُ من رحمةِ ربهِ إلا الضالُّون﴾ [الحجر: ٥٦] . قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله»[1].

والمؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، وقد يُغلِّب أحدهما في بعض الأوقات لحاجة، فإذا عصى غلَّبَ جانب الخوف ليتوب ، وإذا تاب غلَّبَ جانب الرجاء يطلب عفوَ الله.

❁ ❁ ❁

(١) رواه عبد الرزاق وصححه الهيثمي وابن كثير.

هل أعترف؟

وسأل سائل بصوت حزين يقول : أريدُ أن أتوب ولكن هل يجب عليّ أن أذهب وأعترف بما فعلت من ذنوب؟

وهل من شروط توبتي أن أقرّ أمام القاضي في المحكمة بكل ما اقترفت وأطلب إقامة الحد عليّ؟

وماذا تعني تلك القصة التي قرأتها قبل قليل عن توبة ماعز، والمرأة، والرجل الذي قبّل امرأة في بستان.

فأقول لك أيها الأخ المسلم: اتصال العبد بربه دون وسائط من مزايا هذا التوحيد العظيم، الذي ارتضاه الله ﴿وإذا سألكَ عبادي عنّي فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعان﴾ [البقرة: ١٨٦] وإذا آمنّا أن التوبة لله فإن الاعتراف هو لله أيضًا. وفي دعاء سيد الاستغفار «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي» أي أعترف لك يا الله.

ولسنا ولله الحمد مثل النصارى، قسيس وكرسي اعتراف، وصك غفران.. إلى آخر أركان المهزلة.

بل إن الله يقول: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبلُ التوبةَ عن عباده﴾ [التوبة : ١٠٤] عن عباده دون وسيط.

أما بالنسبة لإقامة الحدود فإن الحدّ إذا لم يصل إلى الإمام أو الحاكم أو القاضي فإنه لا يلزم الإنسان أن يأتي ويعترف، ومن ستر الله عليه فلا بأس أن يستر نفسه، وتكفيه توبته فيما بينه وبين الله. ومن أسمائه سبحانه السِّتِّير وهو يحب الستر على عباده، أما أولئك الصحابة مثل ماعز والمرأة اللذان زنيا والرجل الذي قبّل امرأة في بستان فإنهم رضي الله عنهم فعلوا أمرًا لا يجب عليهم وذلك من شدة حرصهم على تطهير أنفسهم، بدليل أنه ﷺ لما جاءه ماعز أعرض عنه وعن المرأة في البداية، وكذلك قول عمر للرجل الذي قبّل امرأة في بستان: لقد ستر الله عليه لو ستر نفسه، وسكت ﷺ إقرارًا.

وعلى هذا فلا يلزم الذهاب للمحكمة لتسجيل الاعترافات رسميًا إذا أصبح العبد وقد ستره ربّه ، ولا يلزم كذلك الذهاب إلى إمام المسجد وطلب إقامة الحد، ولا الاستعانة بصديق في الجلد داخل البيت، كما يخطر في أذهان البعض.

وعند ذلك تُعلمُ بشاعةُ موقف بعض الجهال من بعض التائبين في مثل القصة الآتي ملخصها:

ذهب مذنب إلى إمام مسجد جاهل، واعترف لديه بما ارتكب

من ذنوب وطلب منه الحلّ. فقال هذا الإمام: لابد أولاً أن تذهب إلى المحكمة وتصدق اعترافاتك شرعًا وتقام عليك الحدود، ثم يُنظر في أمرك. فلما رأى المسكين أنه لا يطيق تطبيق هذا الكلام، عدل عن التوبة ورجع إلى ما كان فيه.

وأنتهز هذه الفرصة لتعليق مهمّ فأقول: أيها المسلمون إن معرفة أحكام الدين أمانة، وطلبها من مصادرها الصحيحة أمانة، والله يقول: ﴿ فاسألوا أهلَ الذّكر إن كنتمْ لا تعلمون﴾ [النحل: ٤٣]. وقال: ﴿الرحمنُ فاسألْ به خبيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

فليس كل واعظٍ يصلح أن يُفْتي، ولا كل إمام مسجد أو مؤذن يصلح أن يُخبر بالأحكام الشرعية في قضايا الناس، ولا كل أديب أو قاصّ يصلح ناقلاً للفتاوى. والمسلم مسئول عمن يأخذ الفتوى، وهذه مسألة تعبدية. وقد خشي ﷺ على الأمة من الأئمة المضلين. قال أحد السلف: إن هذا العلم دين فانظروا عمَّن تأخذون دينكم. فاحذروا عباد الله من هذه المزالق والتمسوا أهل العلم فيما أشكل عليكم. والله المستعان.

❁ ❁ ❁

فتاوى مهمة للتائبين

وقد تقول: أريدُ أن أتوبَ ولكنِّي أجهلُ أحكام التوبة، وتدور في ذهني أسئلة كثيرة عن صحة التوبة من بعض الذنوب، وكيفية قضاء حقوق الله التي فرّطت فيها، وطريقة إرجاع حقوقَ العباد التي أخذتها، فهل من إجابات على هذه التساؤلات؟

وإليك إيها العائد إلى الله ما علّه يشفي العليل.

س١ : إنني أقع في الذنب فأتوب منه، ثم تغلبني نفسي الأمارة بالسوء فأعود إليه! فهل تبطل توبتي الأولى ويبقى عليّ إثم الذنب الأول وما بعده؟

جـ١ : أكثر العلماء على أنه لا يشترط في صحة التوبة ألاّ يعود إلى الذنب، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته، فإن عاوده يصبح حينئذ كمن عمل معصية جديدة تلزمه توبة جديدة منها وتوبته الأولى صحيحة.

س٢: هل تصح التوبة من ذنب وأنا مُصرّ على ذنب آخر؟

جـ٢: تصح التوبة من ذنب ولو أصرّ على ذنب آخر، إذا لم يكن من النوع نفسه، ولا يتعلق بالذنب الأول. فمثلا لو تاب من

الربا ولم يتب من شرب الخمـر فتوبته من الربا صحـيحة، والعكس صحيح. أما إذا تاب من ربا الفضل وأصرّ على ربا النسيئة فلا تقبل توبته حينئذ . وكذلك من تاب من تناول الحشيشة وأصرّ على شرب الخمـر أو العكس وكذلك من تاب عن الزنا بامرأة وهو مـصر على الزنا بغيرها فهؤلاء توبتهم غير صحيحة، وغاية ما فعلوه أنهم عدلوا عن نوع من الذنب إلى نوع آخر منه (راجع المدارج).

س٣ : تركت حـقـوقًـا لله في الماضى من صـلوات لم أؤدها وصيام تركته وزكاة منعتها، فماذا أفعل الآن؟

جـ٣: أما تارك الصلاة فالراجح أنه لا يلزمه القضاء لأنه قد فات وقتـها، ولا يمكن استـدراكه، ويعوضـه بكثرة التـوبة والاستغـفار والإكثار من النوافل لعلّ الله أن يتجاوز عنه.

أما تارك الصيام فإن كان مـسلمًا وقت تركه للصيام، فإنه يجب عليه القضـاء مع إطعام مسكين عن كل يوم أخَّرهُ من رمـضان حتى دخل رمضان الذي بعـده، ومن غير عذر وهذه كفارة عن التـأخير، وهي واحدة لا تتضاعف ولو توالت أشهر رمضان.

مثال: رجل ترك ٣ أيام من رمضان سنة ١٤٠٠ هـ و ٥ أيام من رمـضان سنة ١٤٠١ هـــ تهاونًا . وبعـد سنين تاب إلى الله، فـإنه

يلزمه قضاء الصيام ثمانية أيام، وإطعام مسكين عن كل يوم من الأيام الثمانية.

مثال آخر: امرأة بلغت عام ١٤٠٠ هـ وخجلت من إخبار أهلها، فصامت أيام عادتها الثمانية (مثلاً) ولم تقضها، ثم تابت إلى الله الآن فعليها الحكم السابق نفسه. وينبغي أن يعلم أن هناك فرقًا بين ترك الصلاة وترك الصيام ذكره أهل العلم، على أن هناك في العلماء من يرى عدم القضاء على من ترك الصيام متعمدًا دون عذر.

وأما تارك الزكاة فيجب عليه إخراجها وهي حقٌ لله من جهة، وحقٌ للفقير من جهة أخرى. (للمزيد راجع مدارج السالكين ١/ ٣٨٣).

س٤: إذا كانت السيئة في حقّ آدميٍّ فكيف تكون التوبة؟

جـ٤: الأصل في هذا حديث رسول الله ﷺ: «من كانت لأخيه عنده مظلمة، من عرض أو مال، فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يومَ لا دينارَ ولا درهمَ، فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له عمل أخذ من سيئات صاحبه، فجعلت عليه» رواه البخاري. فيخرج التائب من هذه المظالم إما

بأدائها إلى أصحابها وإما باستحلالها منهم وطلب مسامحتهم ، فإن سامحوه وإلا ردّهَا.

س٥: وقعت في غيبة شخص أو أشخاص، وقذفت آخرين بأمور هُمْ بريئون منها فهل يشترط إخبارهم بذلك مع طلب المسامحة وإذا كان لا يشترط فكيف أتوب؟!

جـ٥: المسألة هنا تعتمد على تقدير المصالح والمفاسد.

فإن كان إذا أخبرهم بما اغتابهم أو قذفهم لا يغضبون منه ولا يزدادون عليه حنقًا وغمًا صارحهم وطلب منهم المسامحة ولو بعبارات عامة، كأن يقول: إني أخطأت في حقك في الماضي، أو ظلمتك بكلام، وإني تبتُ إلى الله فسامحني، دون أن يفصل فلا بأس بهذا.

وإن كان إذا أخبرهم بما اغتابهم أو قذفهم حنقوا عليه وازدادوا غمًا وغيظًا - وربما يكون هذا هو الغالب - أو أنه إذا أخبرهم بعبارات عامة لم يرضوا إلا بالتفاصيل التي إذا سمعوها زادوا كراهية له، فإنه حينئذ لا يجب عليه إخبارهم أصلاً ؛ لأن الشريعة لا تأمر بزيادة المفاسد، وإخبار شخص بأمور كان مستريحًا قبل سماعها على وجه يسبب البغضاء وينافي مقصد الشريعة في تأليف القلوب

والتحاب بين المسلمين، وربما يكون الإخبار سببًا لعداوة لا يصفو بعدها قلب المغتاب أبدًا لمن اغتابه.

وفي هذه الحالة يكفي في التوبة أمور منها:

١- الندم وطلب المغفرة من الله مع التأمل في شناعة هذه الجريمة واعتقاد تحريمها.

٢- أن يكذب نفسه عند من سمع الغيبة، أو القذف ويبرئ المقذوف.

٣- أن يثني بالخير على من اغتابه في المجالس التي ظلمه فيها، ويذكر محاسنه.

٤- أن يدافع عمن اغتابه، ويرد عنه إذا أراد أحد أن يسيء إليه.

٥- أن يستغفر له بظهر الغيب (المدارج ١/ ٢٩١، والمغني مع الشرح ١٢/ ٧٨).

ولاحظ أيها الأخ المسلم ، الفرق بين الحقوق المالية وجنايات الأبدان، وبين الغيبة والنميمة، فالحقوق المالية يستفيد أهلها إذا أخبروا بها، وردتُ إليهم، ويسرُّون بذلك، ولذلك لا يجوز كتمُها بخلاف الحقوق التي في جانب العِرْضِ، والتي قد لا تزيد من يُخبر بها إلا ضررًا وتهييجًا.

س٦ : كيف يتوب القاتل المتعمد؟

جـ٦ : القاتل المتعمد عليه ثلاثة حقوق :

حق لله ، وحق للقتيل، وحق للورثة.

فحق الله لا يُقضَى إلا بالتوبة.

وحق الورثة أن يسلم نفسه إليهم ليأخذوا حقهم، إما بالقصاص أو بالدية أو العفو.

ويبقى حق القتيل الذى لا يمكن الوفاء به في الدنيا، وهنا قال أهل العلم : إذا حَسُنت توبة القاتل، فإن الله يرفع عنه حقّ القتيل ويعوض القتيل يوم القيامة خيرًا من عنده عزّ وجل، وهذا أحسن الأقوال (المدارج ١/ ٢٩٩).

س٧: كيف يتوب السارق؟

جـ٧: إذا كان الشيء عنده الآن ردّهُ إلى أصحابه. وإن تلف أو نقصت قيمته بالاستعمال أو الزمن وجب عليه أن يعوضهم عن ذلك، إلا إذا سامحوه فالحمد لله.

س٨: أشعر بالحرج الشديد إذا واجهت من سرقت منهم، ولا أستطيع أن أصارحهم، ولا أن أطلب منهم المسامحة فكيف أفعل؟

جـ٨: لا حرج عليك في البحث عن طريق تتفادى فيه هذا الإحراج الذي لا تستطيع مواجهته، كأن ترسل حقوقهم مع شخص آخر، وتطلب عدم ذكر اسمك، أو بالبريد، أو تضعها خفية عندهم، أو تستخدم التورية وتقول هذه حقوق لكم عند شخص، وهو لا يريد ذكر اسمه، والمهم رجوع الحقِّ إلى أصحابه.

س٩: كنت أسرق من جيب أبي خفية، وأريد الآن أن أتوب ولا أعلم كم سرقت بالضبط، وأنا محرج من مواجهته؟

جـ٩: عليك أن تقدر ما سرقته بما يغلب على ظنك أنه هو أو أكثر منه، ولا بأس أن تعيده إلى أبيك خفية كما أخذته خفية.

س١٠: سرقت أموالاً من أناسٍ وتبتُ إلى الله، ولا أعرف عناوينهم؟ وآخر يقول: أخذت من شركة أموالاً خِلسة، وقد أنهت عملها وغادرت البلد؟ وثالث يقول: سرقت من محل تجاريّ سلعًا، وتغير مكانه ولا أعرف صاحبه؟

جـ١٠: عليك بالبحث عنهم على قدر طاقتك ووسعك، فإذا وجدتهم فادفعها إليهم والحمد لله، وإذا مات صاحب المال فتعطي لورثته، وإن لم تجدهم على الرغم من البحث الجاد فتصدق بهذه الأموال بالنيابة عنهم، وانوها لهم ولو كانوا كفارًا؛ لأن الله يعطيهم

في الدنيا ولا يعطيهم في الآخرة.

ويشبه هذه المسألة ما ذكره ابن القيم (رحمه الله) في (المدارج ١/٣٨٨) أن رجلاً في جيش من المسلمين غلّ (سرق) من الغنيمة، ثم تاب بعد زمن ، فجاء بما غلّه إلى أمير الجيش فأبى أن يقبله منه، وقال: كيف لي بإيصاله إلى الجيش (وقد تفرقوا)! فأتى (هذا التائب) حجاج بن الشاعر (يستفتيه) فقال له (حجاج): يا هذا إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم فادفع خمسه إلى صاحب الخمس وتصدق بالباقي عنهم، فإن الله يوصل ذلك إليهم، فـفعل فلما أخبر معاوية قال: لأن أكون أفتيتك بذلك أحبُّ إليَّ من نصف ملكي. وهناك فتوى مشابهة لشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) قريبة من هذه في قصة مذكورة في المدارج.

س١١: غصبت مالاً لأيتام، وتاجرت به وربحت، ونما المال أضعافًا وخفت من الله وندمت فكيف أتوب؟

جـ١١: للعلماء في هذه المسألة أقوال أوسطها وأعدلها أنك ترد رأس المال الأصلي للأيتام، زائدًا نصف الأرباح، فتكون كأنك وإياهم شركاء في الربح مع إعادة الأصل إليهم. وهذه رواية عن الإمام أحمد، وهو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية وترجيح تلميذه ابن

القيم (رحمه الله) (المدارج ١/ ٣٩٢). وكذلك لو غصب سائمة من إبل أو غنم فنتجت أولادًا فهي ونصف أولادها للمالك الأصلي فإن ماتت أعطى قيمتها مع نصف النتاج إلى مالكها.

س١٢: رجل يعمل في الشحن الجـوي وتتخلف عندهم بضائع أخذ منها مسجلاً خلسـة وبعد سنوات تاب فهل يُرجع المسجل نفسه أو قيمته أو شبيهًا به، علمًا بأن هذا النوع قد انتهى من السوق؟

جـ١٢: يرجع المسجل نفسـه زائدًا عليه ما نقص من قيمـته لقاء الاستـعمـال أو تقادم الزمن، وذلك بطريـقة مناسـبة دون أن يؤذي نفسه، فإن تعذر تصدق بقيمته نيابة عن صاحبه الأصلي.

س١٣: كان عندي أموال من الربا ولكنى أنفقتها كلها، ولم يبق عندي منها شيء وأنا الآن تائب فماذا يلزمني؟

جـ١٣: لا يلزمك إلا التـوبة إلى الله عـزَّ وجلَّ توبة نصـوحًـا والربا خطير، ولم يؤذن الله بحـرب أحد في القرآن الكريم إلا أهل الربا ومـا دامت الأموال الربوية قـد ذهبت كلهـا، فليس عليك من جهتها شيء الآن.

س١٤: اشتـريت سيـارة بمال بعضه حـلال وبعضـه حرام وهي موجودة عندي الآن فكيف أفعل؟

جـ١٤: من اشترى شيئًا لا يتجـزأ كالبيت أو السيارة بمال بعضه حلال وبعضه حرام فيكفيـه أن يخرج ما يقابل الحرام من ماله الآخر ويتصـدق به تطييبًـا لتلك الممتلكات ، فإن كـان هذا الجزء من المال الحرام هو حقّ للآخرين وجب ردّ مثله إليهم على التفصيل السابق.

س١٥: ماذا يفعل بالمال الذى ربحه من تجارة الدخان وكذلك إذا اختلط بأمواله الأخرى الحلال؟

جـ١٥: من تاجر بالمحرمات كبيع آلات اللهو والأشرطة المحرمة والدخـان وهو يعلم حكمـهـا ثم تاب يصرف أرباح هـذه التجـارة المحرمة في وجوه الخير تخلصًا لا صدقة، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًـا. وإذا اختلط هذا المال الحـرام بأموال أخـرى حلال كـصاحب البـقالة الذي يبـيع الدخان مع السـلع المباحـة، فإنه يقـدر هذا المال الحرام تقـديرًا باجتـهاده، ويخـرجه بحـيث يغلب على ظنه أنه نقّى أمواله من الكسب الحرام، والله يعوضه خيرًا وهو الواسع الكريم.

وعلى وجه العـموم فإن من لديه أموالاً من كـسب حرام، وأراد أن يتوب فإن كان:

(١) كافـرًا عند كسبـها فلا يُلزم عنـد التـوبة بإخراجـها لأن رسـول الله ﷺ لم يُلزم الصـحابةَ بـإخراج مـا لديهم من الأمـوال

المحرمة لما أسلموا.

(٢) وأما إن كان عند كسبه للحرام مسلمًا عالمًا بالتحريم فإنه يُخرج ما لديه من الحرام إذا تاب.

س١٦: شخص يأخذ الرشاوي ، ثم هداه الله إلى الاستقامة، فماذا يفعل بالأموال التي أخذها من الرشوة؟

جـ١٦: هذا الشخص لا يخلو من الحالتين:

١- إما أن يكون أخذ الرشوة من صاحب حقٍّ مظلوم اضطر أن يدفع الرشوة ليحصل على حقه لأنه لم يكن له سبيل للوصول إلى حقه إلا بالرشوة، فهنا يجب على هذا التائب أن يردّ المال إلى الراشي صاحب الحقّ ؛ لأنه في حكم المال المغصوب ولأنه ألجأه إلى دفعه بالإكراه.

٢- أن يكون أخذ الرشوة من راشٍ ظالم مثله تحصل عن طريق الرشوة على أشياء ليست من حقه ، فهذا لا يُرجع إليه ما أخذه منه، وإنما يتخلص التائب من هذا المال الحرام في وجوه الخير كإعطائه للفقراء مثلاً. كما يتوب مما تسبب فيه من صرف الحق عن أهله.

س١٧ : عملت أعمالاً محرمة وأخـذت مقابلها أموالاً فهل يجب عليّ الآن وقد تبت إرجاع هذه الأموال لمن دفعوها إليّ؟

جـ١٧ : الشـخص الذي يعمل في أعـمـال محـرمة، أو يقـدم خدمات محرمة، ويأخذ مقابلاً أو أجرة على ذلك، إذا تاب إلى الله وعنده هذا المال الحـرام فإنه يتـخلص منه ولا يعـيده إلى من أخـذه منه. فـالزانية التي أخـذت مالاً عـلى الزنا لا تعيـده إلى الزاني إذا تابت. والمغني الذي أخـذ أمـوالاً على الغناء المحـرم لا يعيـده إلى أصحاب الحـفلة إذا تاب. وبائع الخمر أو المخدرات لا يعـيدها إلى من اشتروا منه إذا تاب. وشاهد الزور الذي أخذ مقابلاً لا يعيد المال إلى من استخدمـه لشهادة الزور وهكذا. والسبب أنه إذا أرجع المال الحرام للعاصي الذي دفعه فـإنه يكون قد جمع له بين العِوَض الحرام والمُعوَّض الحرام، ويكون قـد أعانه على معصـية الله ولذلك يكتفي بالتخلص منه ، هذا اختيار شيخ الإسـلام ابن تيمية وترجيح تلميذه ابن القيم، كما في (المدارج ١ / ٣٩٠).

س١٨ : هناك أمـر يقلقني ويسـبب لي إرهاقًا وأرقـًا، وهو أني وقعت في الفـاحشة مع امرأة فـكيف أتوب، وهل يجوز لي الزواج منها لستر القضية؟ وآخر يسأل أنه وقع في الفاحشة في الخارج، وأن

المرأة حملت منه فهل يكون هذا ولده، وهل يجب عليه إرسال نفقة الولد.

جـ١٨: لقد كثرت الأسئلة عن الموضوعات المتعلقة بالفواحش كثرةً تجعل من الواجب على المسلمين جميعًا إعادة النظر في أوضاعهم وإصلاحها على هدي الكتاب والسنة وخصوصًا في مسائل غضّ البصر وتحريم الخلوة، وعدم مصافحة المرأة الأجنبية والالتزام بالحجاب الشرعي الكامل وخطورة الاختلاط ، وعدم السفر إلى بلاد الكفار والاعتناء بالبيت المسلم والأسرة المسلمة والزواج المبكر وتذليل صعوباته.

أما بالنسبة للسؤال فمن فعل الفاحشة فلا يخلو من حالتين:

١- إما أنه زنى بالمرأة اغتصابًا وإكراهًا فهذا عليه أن يدفع لها مهر مثلها، عوضًا عما ألحق بها من الضرر، مع توبته إلى الله توبة نصوحًا، وإقامة الحد عليه إذا وصل أمره إلى الإمام، أو من ينوب عنه كالقاضي ونحوه. (انظر المدارج ١/ ٣٦٦).

٢- أن يكون قد زنى بها برضاها، فهذا لا يجب عليه إلا التوبة، ولا يُلحق به الولد مطلقًا ولا تجب عليه النفقة لأن الولد جاء من سفاح ومثل هذا ينسب لأمه، ولا يجوز إلحاقه بنسب

الزاني. ولا يجوز للتائب الزواج منها لستر القضية والله يقول **﴿الزاني لا ينكحُ إلا زانيةً أو مشركةً والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ﴾** [النور : ٣].

ولا يجوز العقد على امرأة في بطنها جنين من الزنا، ولو كان منه، كما لا يجوز العقد على امرأة لايدرى أهي حامل أم لا. أما إذا تاب هو وتابت المرأة توبة صادقة وتبين براءة رحمها، فإنه يجوز له حينئذ أن يتزوج منها، ويبدأ معها حياة جديدة يحبها الله.

س١٩ : لقد حصل والعياذ بالله أني ارتكبت الفاحشة وعقدت على المرأة الزانية، وقد صار لنا سنوات وقد تبنا أنا وهي إلى الله توبة صادقة فماذا يجب عليّ؟

جـ١٩ : ما دامت التوبة قد صحت من الطرفين فعليكما إعادة العقد بشروطه الشرعية من الولي والشاهدين، ولا يلزم أن يكون ذلك في المحكمة بل لو حصل في البيت لكان كافيًا.

س٢٠ : امرأة تقول إنها تزوجت من رجل صالح وقد فعلت أمورًا لا ترضي الله قبل زواجها، وضميرها يؤنبها الآن، وتسأل هل يجب عليها إخبار زوجها بما حصل منها في الماضي؟

جـ٢٠ : لا يجب على أيٍّ من الزوجين إخبار الآخر بما فعل في

الماضي من المنكرات، ومن ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله ويكفيه التوبة النصوح.

وأما من تزوج بكرًا ثم تبين له عند الدخول بها أنها ليست كذلك لفاحشة ارتكبتها في الماضي، فإنه يحق له أخذ المهر الذي أعطاها ويفارقها، وإن رأى أنها تابت فستر عليها وأبقاها فله الأجر والمثوبة من الله.

س٢١: ماذا يجب على التائب من فاحشة اللواط؟

ج٢١: الواجب على الفاعل والمفعول به التوبة إلى الله توبة عظيمة، فإنه لا يُعلم أن الله أنزل أنواعًا من العذاب بأمة كما أنزله بقوم لوط لشناعة جريمتهم فإنه:

١- أخذ أبصارهم فصاروا عميانًا، يتخبطون كما قال تعالى ﴿فطمسنا أعينهم﴾.

٢- أرسل عليهم الصيحة.

٣- قلب ديارهم، فجعل عالِيَهَا سافِلَها.

٤- أمطرهم بحجارة من سجيل منضود، فأهلكهم عن بكرة أبيهم.

ولذلك كان الحدّ الذي يقام على مرتكب هذه الفاحشة القتل محصنًا أو غير محصن، كما قال ﷺ: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)[١].

س٢٢: تبتُ إلى الله ولدي أشياء محرمة كأدوات موسيقية وأشرطة وأفلام، فهل يجوز لي بيعها خصوصًا وأنها تساوي مبلغًا كبيرًا

جـ٢٢: لا يجوز بيع المحرمات وثمن بيعها حرام، قال ﷺ: (إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه)[٢]. وكل ما تعلم أن غيرك سيستخدمه في الحرام فلا يجوز لك بيعه إياه؛ لأن الله نهى عن ذلك فقال: ﴿ولا تعاونُوا على الإثمِ والعدوانِ﴾

ومهما خسرت من مال الدنيا فما عند الله خير وأبقى، وهو يعوضك بمنه وفضله وكرمه.

س٢٣: كنت إنسانًا ضالاً أنشر الأفكار العلمانية، وأكتب القصص والمقالات الإلحادية، وأستخدم شعري في نشر الإباحية والفسوق، وقد تداركني الله برحمته، فأخرجني من الظلمات إلى

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني (إرواءالغليل ٢٣٥٠).
(٢) رواه أبو داود وهو حديث صحيح.

النور وهداني فكيف أتوب؟

جـ٢٣: هذه والله النعمة الكبرى والمنةُ العظمى، وهي الهداية فاحمد الله عليها، واسأل الله الثبات والمزيد من فضله.

أما من كان يستخدم لسانه وقلمه في حرب الإسلام ونشر العقائد المنحرفة أو البدع المضلة والفجور والفسق فإنه يجب عليه الآتي:

أولاً: أن يعلن توبته منها جميعًا، ويُظهرَ تراجعه على الملأ بكل وسيلة وسبيل يستطيعه حتى يُعذر فيمن أضلّهم، ويبين الباطل الذي كان عليه لئلاً يغتر من تأثر به من قبل، ويتتبع الشبهات التي أثارها والأخطاء التي وقع فيها فيردُّ عليها، ويتبرأ مما قال وهذا التبيين واجب من واجبات التوبة، قال تعالى ﴿إلاَّ الذين تابُوا وأصلحُوا وبيّنُوا فأولئكَ أتوب عليهم وأنا التوابُ الرحيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

ثانياً: أن يسخر قلمه ولسانه في نشر الإسلام، ويوظف طاقته وقدراته في نصر دين الله، وتعليم الناس الحق والدعوة إليه.

ثالثًا: أن يستخدم هذه الطاقات في الردِّ على أعداء الله وفضحهم وفضح مخططاتهم، كما كان يناصرهم من قبل، ويفند

مزاعم أعـداء الإسلام، ويكون سيفًـا لأهل الحقّ على أهل الباطل، وكذلك كل مـن أقنع شخصًـا ولو في مجلس خـاصٍّ بأمر مـحرّم كجواز الربا، وأنه فـوائد مباحة، فإنه ينبـغي عليه أن يعود ويبين له كما أضلّه حتى يكفّر عن خطيئته والله الهادي.

❁ ❁ ❁

وختامًا:

يا عـبد الله فـتح الله باب التوبة فـهلاّ ولَجْتَ. «إن للتـوبة بابًا عرض ما بين مصراعيه ما بين المشرق والمغرب. (وفي رواية: عرضه مسيرة سبعين عامًا)، لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها»[١].

ونادى الله (يا عـبادي إنكم تخطئـونَ بالليل والنهـار وأنا أغفـر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكمْ)[٢] . فهلاّ استغفرت.

والله يبسط يده بالليلِ ليـتوب مسيءُ النهارِ، ويبـسطُ يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، والله يحبُّ الاعتذار فهلاّ أقبلت.

فلله ما أحلى قـول التائب : أسألك بعزك وذلّي إلا رحـمتني.

---

(١)رواه الطبراني في الكبير (صحيح الجامع ٢١٧٧).
(٢) رواه مسلم .

أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواي كثير وليس لي سيد سواك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاصع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته ورَغِم لك أنفه وفاضت لك عيناه وذلّ لك قلبه.

وتأمل هذه القصة ودلالتها في موضع التوبة:

روي أنَّ أحد الصالحين كان يسير في بعض الطرقات فرأى بابًا قد فُتح وخرج منه صبيٌّ يستغيث ويبكي وأمه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه، ودخلت فذهب الصبي غير بعيد ثم وقف مفكرًا فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه ولا من يؤويه غير والدته فرجع مكسور القلب حزينًا فوجد الباب مغلقًا فتوسَّده ووضع خدَّه على عتبة الباب، ونام ودموعه على خديه، فخرجت أمّه بعد حين، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه والتزمته تقبله وتبكي، وتقول: يا ولدي أين ذهبت عنِّي ومن يؤويك سواي، ألم أقل لك لا تخالفني ولا تحملني على عقوبتك بخلاف ما جبلني الله عليه من الرحمة بك والشفقة عليك

ثم أخذته ودخلت!!

ولكن رسول الله ﷺ يقول: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»(١). وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟ والله يفرح إذا تاب العبد إليه، ولن نعدم خيرًا من ربٍّ يفرح (لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من رجل كان في سفر في فلاة من الأرض، نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فأوى إلى ظل شجرة، فوضع رأسه فنام نومة تحتها، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها، فأتى شرفًا فصعد عليه فلم ير شيئًا، ثم أتى آخر فأشرف فلم ير شيئًا، حتى إذا اشتد عليه الحرُّ والعطشُ قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، رفع رأسه فإذا راحلته قائمة عنده، تجر خطامها، (عليها زاده طعامه وشرابه، فأخذ بخطامها، فالله أشد فرحًا بتوبة المؤمن من هذا براحلته وزاده)(٢).

واعلم يا أخي: أن الذنب يُحدث للتائب الصادق انكسارًا وذلّةً

---

(١) رواه مسلم.

(٢) السياق مجموع من روايات صحيحة، انظر ترتيب صحيح الجامع (٤ / ٣٦٨).

بين يدي الله، وأنين التائبين محبوب عند رب العالمين.

ولا يزال العبد المؤمن واضعًا ذنوبه نُصبَ عينيه فتُحدث له انكسارًا وندمًا. فيعقب الذنب طاعات وحسنات كثيرة حتى أن الشيطان ربما يقول: يا ليتني لم أوقعه في هذا الذنب. ولذلك فإن بعض التائبين قد يرجع بعد الذنب أحسن مما كان قبله بحسب توبته. والله لا يتخلى عن عبده أبدًا إذا جاء مقبلاً عليه تائبًا إليه.

أرأيت لو أن ولدًا كان يعيش في كنف أبيه يغذيه بأطيب الطعام والشراب، ويلبسه أحسن الثياب، ويربيه أحسن التربية، ويعطيه النفقة، وهو القائم بمصالحه كلها، فبعثه أبوه يومًا في حاجة، فخرج عليه عدوٌّ في الطريق فأسره وكتفه وشدّ وثاقه، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء، وصار يعامله بعكس ما كان يعامله به أبوه، فكان كلما تذكر تربية أبيه وإحسانه إليه المرة بعد المرة تهيجت من قلبه لواعج الحسرات، وتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه من النعيم.

فبينما هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب، ويريد ذبحه في نهاية المطاف، إذ حانت منه التفاتة نحو ديار أبيه فرأى أباه منه قريبًا، فسعى إليه وألقى بنفسه عليه وانطرح بين يديه يستغيث يا أبتاه، يا أبتاه!! انظر إلى ولدك وما هو فيه. والدموع تسيل على

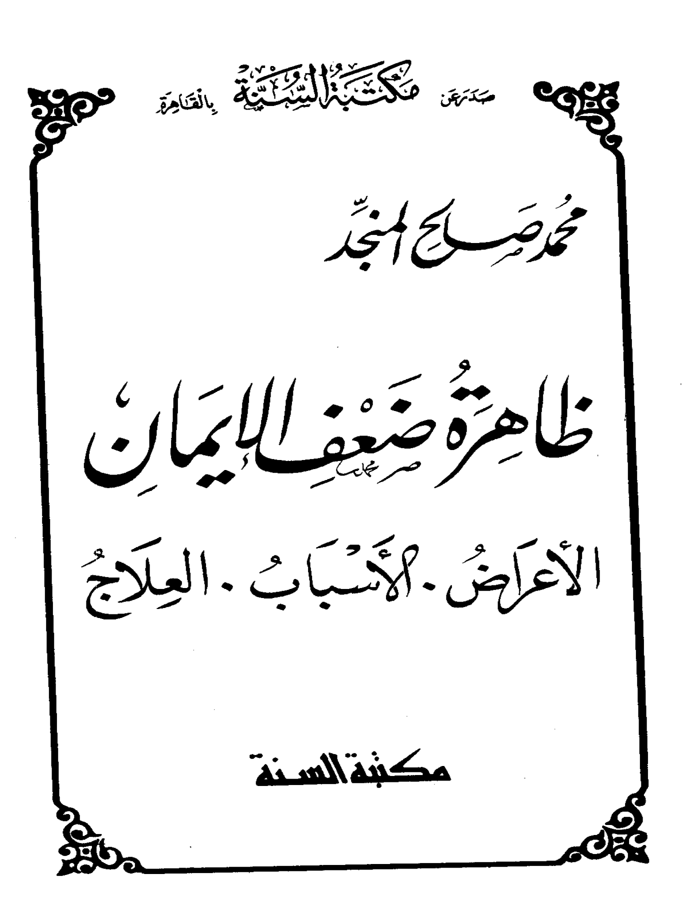
خديه، وهو قد اعتنق أباه والتزمه، وعدوه يشتد في طلبه حتى وقف على رأسه وهو ملتزم لوالده ممسك به. فهل تقول إن والده سيسلمه في هذه الحال إلى عدوه ويخلي بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بوالده ومن الوالدة بولدها؟ إذا فرّ عبدٌ إليه وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحًا ببابه يمرِّغُ خده في ثرى أعتابه باكيًا بين يديه، يقول: يا رب ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا معين له سواك، مسكينك وفقيرك وسائلك، أنت معاذه، وبك ملاذه، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك.

فهيّا إلى فعل الخيرات، وكسب الحسنات، ورفقة الصالحين، وحذار من الزيغ بعد الرشاد، والضلالة بعد الهداية والله معك.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفهـــرس

❁ ❁ ❁



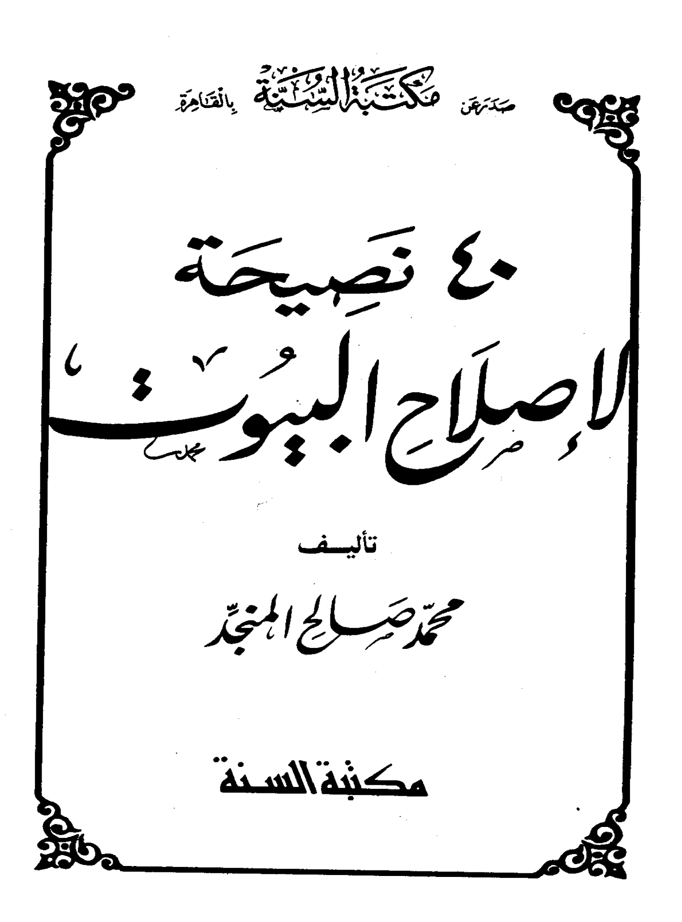
صدر عن مكتبة السنة بالقاهرة

محمد صالح المنجد

ظاهرة ضعف الإيمان

الأعراض . الأسباب . العلاج

مكتبة السنة



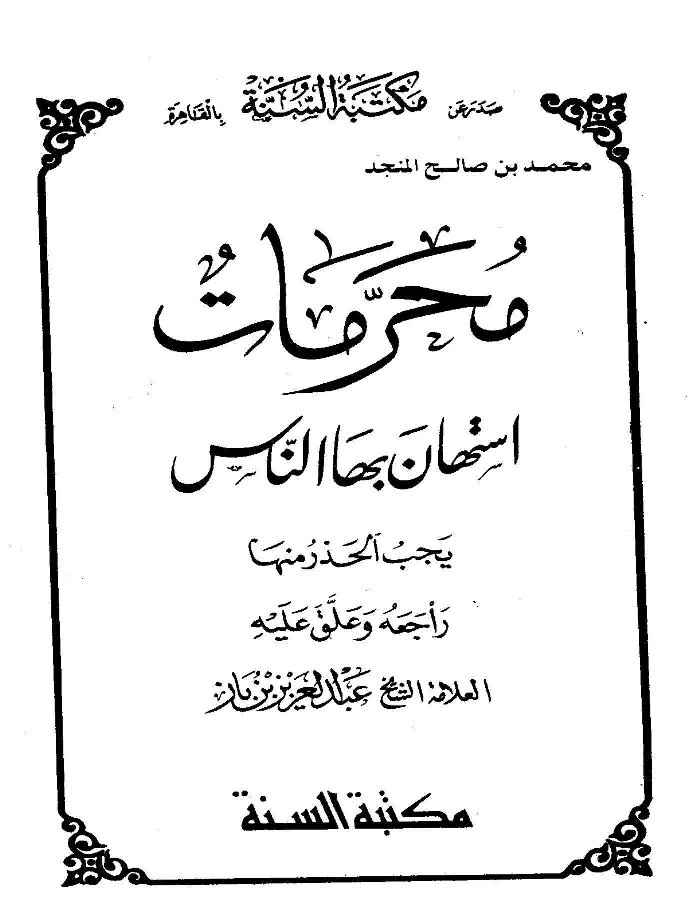
صدر عن مكتبة السنة بالقاهرة

٤٠ نصيحة لإصلاح البيوت

تأليف

محمد صالح المنجد

مكتبة السنة



صدر عن مكتبة السنة بالقاهرة

محمد بن صالح المنجد

محرمات
استهان بها الناس

يجب الحذر منها

راجعه وعلق عليه

العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز

مكتبة السنة